مجلة أبحاث في العلوم التربوية والإنسانية والآداب واللغات، المجلد 02 العدد 01 بتاريخ 2021/03/15م

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

روافد النقد العربي القديم

م.د خالد صكبان حسن

جامعة البصرة

مركز دراسات البصرة والخليج العربي

تاريخ الإيداع: 2021/01/11 م تاريخ التحكيم: 2021/01/17م تاريخ النشر: 2021/03/15م

التمهيد

النقد أمر فطري في الإنسان فالإنسان يميز بفطرته بين الخير و الشر، وبين القبح والجمال، وبين اللذة والألم، وينفر من الكلمة الخشنة الجافة.

لما طرح السؤال حول البداية الأولى للنقد العربي، تعددت الإجابات وتشعبت، فالتقت حينا وتطاحنت أخرى، فاختلف الناس فيها بين قابل ورافض، ولكل واحد من الطرفين منطلق يبرر به قبوله أو رفضه. إذ كانت عناية الكتاب والدارسين منذ فجر النهضة الحديثة في الشرق العربي بالنقد الأدبي، فهبوا يتناولونه بالدرس والتحليل، متجهين فيه اتجاهين مختلفين تبعا لما أتيح لكل فريق من الثقافة ولما تيسر له من إطلاع. هكذا أثارت مرحلة البداية الأولى للنقد نقاشا محتدما بين الباحثين المحدثين الذين اختلفوا في تقويم ماأثير عن هذه المرحلة من أقوال نقدية شفاهية، وأحكام موجزة مرتجلة، ومقاييس ذوقية غير معللة.

ففريق من الباحثين يرى أن مرحلة العصر الجاهلي هي المرحلة التي تطور عنها النقد لينتهي إلى أن العرب عرفوا النقد انطلاقا من التلازم المفترض بين الشعر والنقد، فما دام لدينا شعر فلا بد أن يكون لدينا نقد، بل منهم من يذهب أبعد من ذلك حين يعتبر ن النقد أسبق إلى الوجود من تلك الفنون" وهل الأديب إلا ناقد قبل أن تأخذ أفكاره صبغتها الفنية، ويتخذ أسلوبها الجميل سبيله في الظهور شعرا ونثرا، لا أنكر أن فكرة تنشأ في نفس الأديب وقد تبقى مستقرة فيها، ولكن ما قيمتها وهي خواطر عامة في بحر خياله، قبل أن تأخذ شكلها في التأليف، بين سمو المعنى وجمال اللفظ." (1) ومن اشهر من حمل مشعل هذه الفئة: الأستاذ طه أحمد إبراهيم والأستاذ محمد زغلول سلام.

وفريق قرأ النقد العربي القديم انطلاقا من مفاهيم نقدية مستمدة من الثقافة الغربية، وانتهى برفضه للبداية الأولية للنقد، لينص أن النقد لن يظهر إلا في القرن الرابع الهجري، وقبل هذه المرحلة لا يمكن أن يعتد به. وبذلك يكون قد أعاد قراءة النقد العربي القديم من خلال تصورات ومفاهيم جديدة

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

حول النقد، يحكمه منهج مأخوذ من ثقافة الآخر، ومن رواد هذه الفئة د. محمد مندور ابتداء من 1944 سنة تأليف كتاب " النقد المنهجي عند العرب".

وفريق ثالث نص على أن النقد العربي لن يظهر إلا بظهور الفلسفة وقد توصل لهذه النتيجة من خلال استقراء تاريخي لتاريخ النقد الأدبي في أوربا و مادامت الفلسفة قد تأخر ظهورها في الثقافة العربية، فطبيعي أن يتأخر ظهور النقد، ولن يظهر إلا مع ظهور الفكر الفلسفي على يد المعتزلة والأشاعرة و المتكلمين، وحامل مشعل هذا الطرح الدكتور محمد غنيمي هلال في مؤلفه " النقد الأدبي الحديث " الصادر سنة 1958.

وفريق رابع يجيب عن سؤال: متى نشأ النقد ؟ من خلال تاريخ النقد نفسه، مصحوبا ببعض التصورات الأوروبية، مثله مؤرخ للنقد العربي وهو الدكتور إحسان عباس سنة 1971 في مؤلفه " تاريخ النقد الأدبي".

هكذا نلاحظ أن هذا الاختلاف و التقارب بين هذه الآراء جعلها تخرج من إطار البحث عن نشأة النقد إلى البحث عن متى ينشأ النقد. هل مع الفلسفة؟ هل مع الكتابة و التدوين ؟ هل مع الشعر والأدب؟ بتعبير دقيق: هل النقد كظاهرة ثقافية يظهر بظهور ظاهرة ثقافية أخرى؟ وهل هذا التقارب بين وجهات النظر ظاهرة صحية أم ظاهرة مرضية ؟ ما هو السر الكامن من وراء هذا الاختلاف؟...

البدايات الأولى للنقد العربي

إذا تصفحت كتاب " تاريخ النقد الأدبي عند العرب" للمرحوم طه أحمد إبراهيم تلاحظ من البدء أنه سطر مجموعة من النتائج حول البداية الفعلية للنقد العربي القديم وهي كالتالي:

أولا:عروبة النقد: فالنقد عربي المولد و التطور، انطلاقا من كون " النقد الأدبي ظهر في الشعر وظلت أكثر بحوثه في الشعر."(2) ثم هو " عربي النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية، ولم يقم إلا على الذوق العربي السليم" (3) وقوله أيضا: " إنه عربي في أعارضه ونهجه وأغراضه وروحه" (4).

هكذا نخلص أن النقد الأدبي عند العرب نشأ عربيا، وظل عربيا صرفا، وذلك لأن أساس كل نقد هو الذوق الشخصي، تدعمه ملكة تحصل في النفس بدون ممارسة الآثار الأدبية. وهل من الخطأ أن يقال بأن النقد العربي ليس عربي النشأة فلقد وجد النقد الأدبي بصورته الأولى بعد أول مقطوعة شعرية قالها العرب، أي أنه كان ملازما للشعر، ونحن نعلم أن الشعر يثير بفضل خصائص صياغته أنواعا خاصة من الانفعالات ومن المؤكد أن تكون هناك استجابات لهذا الانفعال في بعديها السلبي والإيجابي، وعن هذه

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الاستجابات يصدر حكم، وهذا الحكم هو: النقد، والذي لا شك فيه أن الاستجابات لم تكن فاترة وفي أخلاقهم عنف البداوة، كما أن في شعرهم ما يحرك ضروبا من الانفعال الشخصي والقبلي.

ثانيا: نضج الشعر: فالشعر الجاهلي لم يعرف إلا ناضجا مكتملا متجاوزا مرحلة المقطعات إلى مرحلة القصيدة الكاملة ذات الروي الواحد و القافية الثابتة، " إننا لا نعرف الشعر إلا ناضجا كاملا، منسجم التفاعيل مؤتلف النظم، كما نقرأه في المعلقات وفي شعر عشرات الجاهلين الذين أدركوا الإسلام أو كادوا يدركونه "(5)

ثالثا: تثقيف الشعر: و هي عملية يقوم بها الشعراء تجاه شعرهم عن طريق الزيادة و النقضان أو التقديم والتأخير. وقد عده طه أحمد إبراهيم مظهرا من مظاهر الحس النقدي عند شعراء الجاهلية، ومنهم رواد المدرسة الأوسية الذين نعتهم الأصمعي " عبيد الشعر"، وخاصة زهير صاحب الحوليات، فالشعراء من هذا المنظور يتوجهون إلى شعرهم، فيتدارسونه ويراجعونه ويحذفونه منه، ويضيفون إليه في تبصر وعمق. وكان كل هذا ضربا من الممارسة النقدية على نصوصهم الشعرية. وفي هذا الصدد يقول طه أحمد إبراهيم:" إن هذا الشعر مر بضروب كثيرة من التهذيب حتى بلغ ذلك الاتقان الذي نجده عليه، أواخر العصر الجاهلي... فلم يكن طفرة أن يهتدي العربي لوحدة الروي في القصيدة، ولا لوحدة حركة الروي، ولا للتصريع في أولها و لا لافتتاحها بالنسب والوقوف بالأطلال، لم يكن طفرة أن يعرف العرب كل تلك الأصول الشعرية في القصيدة، وكل تلك المواصفات في ابتداءاته مثلا وإنما ذلك كله بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب. وهذا التهذيب هو النقد الأدبي."(6) ما يؤكد أن القدماء لم يقبلوا كل ما يرد على خواطرهم بل ما يزالون ينقحون حتى يظفروا بأعمال جليلة، وهي أعمال كانوا يجيلون فيها الفكر متكلفين جهودا شاقة في التماس المعنى المصيب تارة، والتماس اللفظ المتخير تارة ثانية. يقودهم في ذلك بصر محكم يميزون به المعاني والألفاظ بعضها من بعض، بحيث يصونون كلامهم عما قد يفسده أو يهجنه ومن ذلك قول عدي بن الرقاع:

وَقَصِيدَةٍ قد بتُّ أجْمعُ بينها حتى أُقَوِّم مَيْلها وسِنادَها

نظرَ المثقِّف في كعوبِ قناتِه حتى يُقيم ثِقافُه مُنْآدها(6)

وقد اعتبر ابن قتيبة هذا اللون ضربا من التكلف في الشعر " فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش. وأفاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة و كان الأصمعي يقول: زهير و الحطيئة

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وأشباهها(من الشعراء)عبيد الشعر لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين." (7) وكان سويد بن كراع يذكر تنقيح شعره بقوله:

أبِيتُ بِأبْوابِ القوافي كأنما أُصَادي بها سِرْبا من الوحشِ نُزَّعَا
أُكالِئُها حتى أعرِّس بعدما يكون سُحَيْرا وبُعَيْد فأهْجعا
إذاخفْتُ أن تُرْوعليَّ رددْتُها وراء التَّراقي خَشْيَة أن تطلعا
وجشَّمني خوفُ ابن عفان ردها فثقَّفتها حولا جريدا ومرْبَعا
وقد كان في نفسي عليها زيادةً فلم أرَ إلا أن أطيع وأسمعا(8)

رابعا:التلازم بين الشعر و النقد: لكي يبرهن على وجود النقد التمس الأستاذ طه أحمد إبراهيم دلائله من وجود الشعر، انطلاقا من أن النقد هو تلك المدرسة التي تعمل على إنضاج الشعر، وتخليصه من الشوائب التي علقت به لحظة ولادته وتكوينه، محاولا بذلك الرفع من مستواه، وجعله قابلا للتدوين والإعجاب، خاصة إذا علمنا أن أولية الشعر ترتكز على تصور جمالي فني محدد: " في مثل هذا العهد نعد نقدا كل ماله مساس بالأدب بنية ومعنى، وإن لم يتصل بالبحث في الجمال الفني، فذم الإقواء نقد في الجاهلية، لأنه يعيب أمرا لعله من آثار طفولة الشعر."(9).

هكذا نلاحظ من خلال النص كيف يحدد ذ. طه أحمد إبراهيم النقد في العصر الجاهلي في:

- أنه نقد ينصب على النصوص الحديثة و المعايشة.
- أنه نقد يهتم بالجانب الفني والمعنوي أي بالشكل و المضمون.

ونلمس وصفه للنقد بدقة حين نقرأ النص التالي:" وجد النقد الأدبي في الجاهلية ولكنه وجد هينا يسيرا، ملائما لروح العصر، ملائما للشعر العربي نفسه، فالشعر الجاهلي إحساس محض أو يكاد. والنقد كذلك كلاهما قائم على الانفعال والتأثر، فالشاعر مهتاج بما حوله من الأشياء والحوادث، و الناقد مهتاج بوقع الكلام في نفسه، وكل نقد في نشأته لا بد أن يكون قائما على الانفعال بأثر الكلام المنقود، والنقد العربي لا يشذ عن تلك القاعدة "(10) وبذلك يبقى نقد المرحلة غير خارج عن ما عهد في الأدب عامة و الشعر خاصة. إذ كان يعتمد على نفس الصفات والمقومات والركائز، ويتصف بنفس الميزات التي يتصف بها الشعر من سليقة وذوقية وعفوية وارتجال. ومن المعالم التي يركز عليها ذ.طه أحمد إبراهيم وجود النقد العربي على العهد الجاهلي:

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

أ- ما كان يدور في الأسواق حين كان الأدب سلعة من السلع التي تعرض فيه.

ب- المجالس الأدبية التي عرفت مساجلات ومناقشات بين الشعراء."وهذه الأحاديث والأحكام والمآخذ هي نواة النقد العربي الأولى."(11).ومن ذلك ما نجده:

- في سوق عكاظ: حيث كانت تضرب قبة حمراء للنابغة فيتوافد عليها الشعراء من أجل الحكم على أشعارهم. فقد جاءه مرة الأعشى والخنساء وحسان بن تابث فأنشده الأعشى قصيدته التي مطلعها:

مَا بُكَاءُ الكَبير بِالأطلالِ وسؤالِي وما تَرُدُّ سؤالِي

وأنشده حسان بن ثابت قوله:

لنَا الجَفَنَات الغُرِّ يلمعن بالضُحَى وأسْيَافُنَا يقطرن من نجدةٍ دمَا

أما الخنساء فقد أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر:

قذىً بعينك أم بالعين عُوارُ أَم أَقْفَرتْ مُذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

وإن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِه كأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

فقال النابغة:"لولا أن أبا بصير-يعني الأعشى- أنشدني، لقلت:إنك أشعر الجن والإنس."(12)

من هذا الخبر ندرك منزلة النابغة عند معاصريه، وما احتكامهم إليه دون غيره إلا اعتراف علني بشاعر يته، وقدرته على تمييز الجيد من الرديء في الشعر، ودليل كذلك على ما كان يتمتع به من علم بصناعة الشعر ومن ملكة خاصة في النقد.

2-ما نجده في يثرب: ونأخذ فيه كنموذج ما عيب على النابغة من ارتكابه للإقواء ولم يستطع أحد أن يصارحه به حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه إياه غناء في قوله:

أمن آل مَيَّة رائحٌ أو مُغْتدي عَجْلان ذا زادٍ، وغير مزودِ

زعمَ البوارحُ أن رحْلتنا غدا وبذلك خبَّرنا الغُرابُ الأسودُ

ذكر الاصفهاني أن النابغة قدم المدينة، فعيب عليه هذا الإقواء فلم يأبه حتى جاءوه بجارية فجعلت تغنيه "أمن آل مية رائح أو مغتد " وتطيل حركة الدال وتشبعها في "مغتدي" و"مزود". ثم غنت البيت الأخير فبينت الضمة في قوله "الأسود" ففطن بذلك لما يريده، فغير عروضه وجعله " وبذلك تصاب الغراب الأسود". وكان من اجل هذا يقول "وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها و أنا اشعر الناس".(13)

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

والخطأ النحوي الذي ارتكبه النابغة يتمثل في كونه لم يأبه لرفع النعت، فجعله مجرورا خضوعا لقافيته، وحين تلقف الرواة البيت أعادوه إلى قاعدته النحوية ووضعوا له مصطلح "الإقواء."(14)

-ما نجده في مكة:ومثل له طه أحمد إبراهيم بموقف طرفة بن العبد من خاله المتلمس حين أنشده قوله المشهور:

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضارهِ بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَة مُكْدمِ

قال طرفة:"استنوق الجمل".لأن "الصيعرية" صفة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير.

فهذا نقد يدل على بصر طرفة بمعاني الألفاظ، ومواضع استعمالها، كما يدل على ذوقه النقدي، وفطنته إلى أن مثل هذا الخطأ اللفظي مما يعيب الشعر.

خامسا: إطلاق الأحكام على الشعراء:ومن تلك الأحكام، أسماء أطلقوها على الشعراء تحوي حقائق عن فنهم الشعري، أو ما يتصل بذلك الفن من قريب أو بعيد، ومن ذلك أنهم لقبوا النمر بن ثولب"بالكيس" لحسن شعره، وسموا طفيل الغنوي بطفيل "الخيل"لشدة وصفه اياها، ودعوا قصيدة سويد بن أبي كاهل "باليتيمة" لأنها فريدة في بابها ومطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل ما اتسع(15)

ويعلق طه أحمد إبراهيم على هذه الشواهد قائلا:"هذه الشواهد تدل على وجود صور من صور النقد الأدبي في العصر الجاهلي."(16)رغم أنها تتسم بمجموعة من المظاهر منها:

أ-التعميم في الأحكام: إذ كان النقد الجاهلي في أول مرة ساذجا سذاجة البيئة الطبيعية والاجتماعية، فكان النقاد يطلقون أحكاما متنوعة على الشعر في أيامهم، تتناول الشاعر والقصيدة جملة، وقد يكون هذا الحكم مبنيا عندهم على إعجابهم ببيت من أبيات القصيدة أو بجزء من البيت، وقد يرجع هذا الحكم إلى إعجابهم بالشاعر نفسه وبشخصيته.

ب- الذوق الفطري:لقد صدرت الأحكام النقدية الجاهلية متسمة بالذوق الفطري الذي يعتمد على إحساس الناقد المباشر بالمعنى أو الفكرة، فهو يتلقاها ويحسها بذوقه الفج، وفطرته الساذجة. ولهذا تصدر أحكامه مرتجلة نتيجة لهذا التذوق المباشر.فطرفة بن العبد وهو صبي لم يستسغ وصف الجمل بوصف الناقة فيصيح قائلا في وجه خاله المتلمس:"استنوق الجمل".والنابغة يستنكر على حسان بن ثابت استعمال القلة في مقام الفخر في قوله:

لَنا الجفناتُ الغرِّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

فعلق على هذا البيت أبو بكر الصولي بقوله:"فانظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل على نقاء كلام النابغة، وديباجة شعره، وقال له:أقللت أسيافك، لأنه قال:وأسيافنا:جمع لأدنى العدد، والكثير"سيوف"، والجفنات لأدنى العدد والكثير"جفان" (17).وقد اعتمد في ذلك على ذوقه الفطري الذي صقلته ثقافته العربية الواسعة،وأحاطته بعادات قومهم وقيمهم.

ج- الارتجال في الأحكام:وهذه السمة تتصل اتصالا مباشرا بالذوق الفطري الذي يعد أساسا هاما في صدور الأحكام النقدية، غير أن هذه الظاهرة تعد أثرا من آثار التذوق. فبعد أن يتذوق الناقد الشعر يصدر حكمه إما ارتجالا، وإما بعد إثبات وروية ودراسة موضوعية لنواحي الجودة أو الرداءة، لكن السمة الغالبة في النقد الجاهلي هي سمة الارتجال، والبعد عن الدراسة التفصيلية للقصيدة و التحليل لها.

حقا، كان من بين الشعراء مدرسة سمي أفرادها "عبيد الشعر"وكانت تبذل عناية فائقة في تفهم الشعر وتذوقه، وتجويده وتنميقه، ولكن على الرغم من ظهور رواد هذه المدرسة وهم أصحاب الحوليات، فلم يكن ذلك هو الاتجاه الغالب وإنما كان اتجاها محدودا لدى أهل المدرسة، وطابعا خاصا يميز المنتسبين إليها، أما الطابع العام فهو الاتجاه والبعد عن التحليل والتماس العلل، لأن البحث عن أسباب ظاهرة من الظواهر المادية و المعنوية، كان أبعد ما ينتظر من هذه البيئة التي فتكت بها الأحقاد، واستفحل فيها الخصام، وأصبحت مسرحا للتيارات، وميدانا للخصومات والغارات فخاصم الكرى جفون أهلها، وفقد الأمن سبيله إلى عقولهم وفكرهم، ومن تم لم تكن تفرغ للبحث في علم أو فن. كانت سمتهم الأمية، فلم يؤثر عنهم كتاب في علم من العلوم، أو مصنف في لون من ألوان التفكير، أو أثر يدل على تفوقهم في صناعة من الصناعات. فقد اشتهرت الرومان بعظمة السلطان وكثرة المدائن، واشتهرت اليونان بعملها وفلسفتها، والهند بطبها وحكمتها، و الصين بفنونها وصناعتها، وهؤلاء قد عاصروا العرب في جاهليتهم، ولم يؤثر عن العرب إلا تلك الملكة التي استطاعوا بها أن يرسلوا القول، ويصوغوا الشعر، وإلا تلك المكارم النفسية التي كانت تصدر عن سماحة طبعت عليها نفوس بعض كرامهم الذين اتصفوا: بالنجدة و البذل والتضحية... وليس في تلك اللمحات النقدية شيء غريب عن البيئة التي قيلت فيها، بل إنها أشبه ما تكون بطبيعة الجاهلين الذين لم يكن لديهم من أشياء الحضارة، وألوان الثقافة ما يسمح لهم بمحاولة تأييد الرأي بالعلة المعقولة، والدليل الواضح الذي يؤديها.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

النقد اللغوي

يتحدث طه أحمد إبراهيم في تأريخه للنقد العربي القديم، مسجلا سماته قائلا:"النقد الأدبي توطد واستقر في عهد الطبقات الأولى من اللغويين... وعرفت له مقاييس وأصول. وظاهر جدا أنه ليس نقد السليقة و الفطرة بل نقد المدارسة الكبيرة التي تبنى على العلم" (18). وبذلك نلاحظ أن نقد المرحلة متطور عن ما سبقها، زد على هذا أنه نقد علمي بعيد عن الذوقية والانطباعية، وعلى هذه النتيجة يبني طه أحمد إبراهيم تصوره للبداية الفعلية للنقد حين يؤكد أن أواخر القرن الأول بداية صحيحة لظهور النقد، حيث يقول:" غير أن الحال تغيرت كثيرا في أواخر القرن الأول. تغيرت في أخريات أيام فحول الإسلاميين، فارتقى النقد الأدبي ارتقاء محمودا، وكثر الخوض فيه، وتعمق الناس في فهم الأدب، ووازنوا بين شعر وشعر، وبين شاعر وشاعر، حتى لتستطيع أن تقول:إن عهد النقد الصحيح يبتدئ من ذلك الوقت، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه". (19)

نحن نقوم ذوق طه أحمد إبراهيم في تعامله مع المادة النقدية الموروثة عن العهد الجاهلي تزدحم في ذهننا تساؤلات عدة منها، هل بالفعل نشأ النقد بنشأة الشعر؟ هل ما ورث عن هذه المرحلة من أحكام نقدية يمكن أن نعتبره نقدا؟ ما المقدمة التي حكمت طه أحمد إبراهيم وجعلته يصل إلى هذه النتيجة؟...

ونقرر بدءا أن مرحلة الجاهلية و التي اعتبرها طه أحمد إبراهيم بداية فعليه للنقد، لم تكن بتاتا مؤهلة لنشأة النقد لأسباب ذكرت بعضا منها. وكل ما نؤكده الآن أن النقد الحقيقي، أي عهد النقد الفعلي وشروط النقد الصحيح لم تتوفر بعد في هذه الحقبة، وهي لن تتوفر إلا في مرحلة متقدمة من تطور المجتمع العربي وفي غياب الشروط الموضوعية لنشأة النقد نكون أمام نفحات وآراء لا ترقى إلى مستوى النقد. وقد أدرك ذلك ذ.طه أحمد إبراهيم نفسه حين وصل بدراسته إلى أواخر القرن الأول، إذ تملتكه صيحة الدهشة والإعجاب، فصاح قائلا:" إن عهد النقد الصحيح يبتدئ من ذلك الوقت، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه".(20) إن ما اعتبره ذ.طه أحمد إبراهيم نقدا في هذه المرحلة أملته ظروف الحياة الاجتماعية عند العرب التي كانت تقوم على النيل والتجريح والحط من الخصوم، أو الإشادة بالذكر، وهذا لا ينفي الغرض الفني منها، إذ كان يهدف الشاعر من إصدار حكم الإقرار بالمثل في الصياغة والمعاني كما هو الشأن فيما روي عن النابغة، وطرفة، وأم جندب، ورغم ما فيه من فنية فإنه لا يرقى إلى مستوى النقد الموضوعي، من تم لا يمكننا الحديث عن نقد في هذه المرحلة.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

النقد الممنهج

تسلح د. محمد مندور بالمنهج التاريخي ليعيد قراءة التراث العربي عامة، والنقد الأدبي منه خاصة.رفض الوقوف عند حدود ما أثير من نقد في الأسواق والمنتديات الأدبية، وأكد منذ البدء أنه سيركز على ما جاء من نقد ممنهج مع كل من الآمدي والجرجاني، باعتبارهما شكلا المحور للطرح الذي يتبناه د. محمد مندور ويعتد به، وجعله أساس ما أسماه بالنقد المنهجي:" لم نقف وقفات خاصة عند نقد الشعراء، أو محكمين في أسواق الأدب وما شاكل ذلك، مما نجد في تضاعيف كتب الأدب والرواية القديمة. وذلك لكي نظل في حدود الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب، وهي معالجة النقد المنهجي عند العرب" (21) وإن سأله سائل عن ما النقد المنهجي يجيبه بسرعة:" هو ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة، ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها، و يبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال و القبح فيها."(22)

ينطلق د. محمد مندور لرصد تطور النقد الأدبي العربي القديم انطلاقا من تحديد مفاهيم عن الأدب والنقد، وتاريخ الأدب، ودور الذوق في العمل النقدي اعتمادا على ما جاء به الناقد الفرنسي "غوستاف لانسون G.Lanson.

يتناول د. محمد مندور إشكالية نشأة النقد، بعدما يقرر أن التاريخ الأدبي، يكون في خلقه وتطوره مؤخرا عن النقد الأدبي في ظهوره.وفي ذلك يقول:" فالنقد الأدبي سابق عند العرب عن التاريخ الأدبي " (25). بينما النقد الأدبي ينشأ ملازما للشعر، متواجدا بتواجده، متطورا بتطوره ومتعايشا بتعايشه. وكل تغير يتعرض له الشعر، إلا وتجد صداه باديا في النقد. وفي ذلك يقول:" فقد وجد النقد عند العرب ملازما للشعر".(26)

يقرر محمد مندور أن" النقد الأدبي نشأ عربيا، وظل عربيا صرفا، وذلك لأن أساس كل نقد هو الذوق الشخصي تدعمه ملكة تحصل في النفس بطول ممارسة الآثار الأدبية". (29) , وأنه"وجد النقد الأدبي عند العرب ملازما للشعر"(30)

وبعد إقراره بوجود لمحات نقدية منذ القدم لدى العرب، اعتذر عن عدم إيراد نماذج لأنه سبق في ذلك بعمل الأستاذ طه أحمد إبراهيم في مؤلفه " تاريخ النقد عند العرب " فطرح السؤال التالي:" هل من الممكن أن نسمي هذا نقدا دون أن يكون في ذلك إفساد لحقائق التاريخ أو إخلال بأصول البحث؟".(31)

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

فيجيب عن هذا السؤال انطلاقا من ملازمة الشعر للنقد، ومن اعتبار الذوق أساس كل عملية نقدية فيسجل بأنه " قد وجد عند الجاهليين والأمويين نقد ذوقي يقوم على إحساس فني صادق، ولقد تركزت بعض أحكامهم في جمل سارت على كافة الألسن كقولهم:" أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب" (32) غير أن هذا الذوق في النقد القديم، وانطلاقا من مفهوم "لانسون" نسجل عليه العيوب التالية:

*عدم وجود منهج: وهو شيء طبيعي في مرحلة البداوة، وهي مرحلة تطغى عليها السذاجة والفطرة والعفوية. فقد كان العربي يأخذ ويرد بناء على فطرته إذ يستطيع بإحساسه أن يبدع أجمل الشعر، دون أن يحتاج إلى عقل ناضج فكان طبيعيا أن يكون النقد غير ممنهج، وغير خاضع لنظر طويل، انطلاقا من التلازم المتواجد بين الشعر والنقد. فكان بذلك النقد جزئيا مسرفا في التعميم يحكم للشاعر له أو عليه من خلال البيت الواحد أو الشطر الواحد دون أن يكلف نفسه عناء الأخذ بالإنتاج برمته. من تم فالنقد الممنهج لن يظهر إلا مع رجل نما تفكيره، واستطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل.

**عدم التعليل المفصل: وهو شرط لم يكن متوفرا لعرب البداوة، إذ التعليل يعتمد العقل والتفكير العربي فطري. والتعليل يبغي وضع مبادئ عامة. والعرب لم تكون بعد مبادئ علومها اللغوية إلا مع العهد العباسي. والتعليل يأتي بعد وضع القواعد. والقواعد لم توضح في سائر العلوم إلا في القرن الثالث الهجري. والتعليل ينص على ضرورة انفصال العلوم بعضها عن الآخر، وهذا لم يتم إلا في مرحلة متأخرة من مراحل تطور الفكر عند العرب، والتعليل يبغي أولا وأخيرا التدوين – وكلنا نعلم متى ظهر التدوين – إذا، في غياب هذه المسائل الموجدة للتعليل يغيب التعليل، وفي غياب التعليل يغيب النقد الممنهج والمنظم.

وهذان العيبان واضحان في الكثير من الأحكام النقدية المروية في كتب الأدب إذ لا تعتمد تحاليل النصوص أو النظرة الشاملة فيما قال هذا الشاعر أو ذلك، وينتهي من تحليله إلى الخلاصة التالية:" فقد ظل النقد في هذه المرحلة (قبل الإسلام) إحساسا خالصا ولم يستطع أن يصبح معرفة تصح لدى الغير، بفضل ما تستند إليه من تعليل"(33) هكذا نلاحظ أن د.محمد مندور يركز على المنهج التاريخي، فهو منهج صائب في نظره يساعد على فهم جيد النقد العربي إذ هو الذي يكشف لنا عروبة النقد. من هنا يرفض المنهج الأرسطي المبني على المنطق الصوري. وهذا دافع من الدوافع الأساسية التي دفعت د. محمد مندور إلى إقصاء ونسف محاولة قدامة بن جعفر، التي استهدفت إقامة "علم الشعر" و" علم النثر". وكذا محاولة أبي هلال العسكري التي عدت امتدادا لها فاعتبرهما محاولتين لا جدوى من ورائهما.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

بين الفلسفة والنقد

تناول د. محمد غنيمي هلال قضية نشأة النقد العربي، كان يؤكدها دوما من التلازم التاريخي القائم بين الفلسفة والنقد عبر العصور.إذ في نظره أن النقد " قد ارتبط –منذ أقدم عصوره عند اليونان – بالفلسفة حتى صار فرعا من فروعها، وقد ازداد هذا الارتباط وضوحا في عصور النقد الحديثة، وبخاصة في عصرنا، إذ أصبح النقد مرتبطا كل الارتباط بعلوم الجمال التي هي من فروع الفلسفة".(35) وهذا التلازم والترابط جعل كل تقدم في النقد – في نظر د. محمد غنيمي هلال – لا ينجم إلا عن تقدم في العلوم الإنسانية، ومنها الفلسفة، فالنقد يتطور بإفادته منها ومحاكاته لمناهجها إذ أن " نهضتنا الأدبية الحديثة ترجع في أصولها إلى الأدب الغربي بحيث لا يستطيع الناقد أن يخطو فيه خطوة ذات قيمة ما لم يكن على صلة وثيقة بالآداب الغربي، وتيارات النقد فيها، وتاريخ الآداب العالمية يثبت أن عصور الانحطاط فيها هي العصور التي انطوت فيها الآداب القومية على نفسها".(36)

هكذا نجده منذ البدء يصرح بعدم اهتمامه بما نصطلح على نعته بالبداية المفترضة للنقد، وهو تلك الأحكام التي كانت تصدر عن شعراء وأدباء بأسواق الجاهلية والعصر الإسلامي. وفي ذلك يقول:" طبقا لما اتخذنا لأنفسنا من منهج، ولما عرفنا به النقد الحديث. لن نعبأ في نشأة النقد العربي بالأحكام العامة التي كان يصدرها الشعراء في القديم، بعضهم على بعض مع عدم التعليل لها: مما يروى بعضه في أسواق الجاهلية إذا افترضنا صحته وكثير منه واضح الانتحال ويلتحق بذلك ما كان يدور في نظير هذه الأسواق الجاهلية في العصر الإسلامي كسوق المربد بالبصرة."(37).

وينص د.محمد غنيمي هلال على أن هذه الأسواق قريبة الشبه بما كان من التحكيم المسرحي في العصور اليونانية، الذي كان يتم في الأعياد الدينية بمدينة آثينا."(38)

وينتقل بعد ذلك إلى العهد اليوناني في إطار عمليته التاريخية للنقد العربي القديم فيقول: "و في العصر الأموي ظهر اتجاه نقدي جديد- و إن يكن بدائيا-و لكنه كان فيه ضرب من التعليل الموضوعي، أساسه تقاليد العرب في أشعارهم و عادتهم وحياتهم العاطفية، وهو تابع للعرف اللغوي الذي أثر بخاصة في الموازنات بعد".(39) و يستمر د. محمد غنيمي هلال في ترصده للنقد العربي القديم فيصل إلى أن في العصر العباسي استجاب الأدب العربي لمطالب المجتمع الجديد بسبب اتساع الحضارة الإسلامية، و اتصال العرب بالثقافات الأخرى. و تعرفهم على حضارات الأمم الأخرى القديمة منها اليونان و الفرس على أن أهم الاتجاهات التي ظهرت في النقد في هذا العصر قد ظهر فيها أثر النقد اليوناني قليلا أو كثيرا،

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

في حدود ما استطاع نقاد العرب فهمه، و نموذجه في ذلك قدامة بن جعفر، فهو يعتبره البداية الفعلية لظهور النقد عند العرب باعتباره أول من ظهرت لديه القواعد اليونانية مطبقة بشكل جلي في مؤلفه "نقد الشعر ". فهو بداية حقيقية لظهور النقد العربي لأنه شكل ذلك الامتزاج بين الثقافتين و في ذلك يقول:"...فمن ذلك اتجاه قدامة إلى دراسة الأجناس الأدبية تبعا لنظرة أرسطو في النظر إلى العمل الأدبي، بوصفه كلا ذا وحدة في حدود ما فهم قدامة و من سايروه".(40)

هكذا نخلص إلى أن النقد بالمعنى الدقيق لن يظهر إلا إذا قام على أساس نظري وعلمي معا. فهو مرتبط بالعلوم الإنسانية، وعلى رأسها الفلسفة، بل لقد تطور حتى صار فرعا من فروعها. وفي غياب الفلسفة يغيب النقد. وفي ذلك يقول:" فعلى ما يوجد من فارق هام بين الفلسفة –التي أخص خصائصها التجريد– وبين الأدب الذي جوهره التصوير الجمالي في المعنى الأشمل الأعم له، ثم النقد الذي موضوعه الأدب فيما له من خصائص، تظل الصلة مع ذلك وثيقة بين الأدب ونقده وبين الفلسفة".(41)

فعلى الرغم مما يمكن أن نلاحظه من اختلاف بينهما، فهو اختلاف ظاهري، أما في العمق فهما مترابطان. فالفلسفة هي الأساس النظري الذي يجب أن يقوم عليه كل نقد. بل لا يستقيم عود هذا الأخير إلا إذا استقر على نظرية فلسفية معينة، ويمثل د.محمد غنيمي هلال لذلك بالنقد الحديث، إذ كان من نتيجة الفلسفة المثالية أن يوجد في النقد " المذهب التأثري "، ونزعة الأسلوبين " العامة التي تمثلها مدرسة النقد الحديث الأمريكية، إذن، فهذا الثالوث: فلسفة، نقد أدب، يرتبط بعضه بالبعض في حقل العلوم الإنسانية.

واستنادا على هذا فلا نقد بدون فلسفة. وغياب الفلسفة ينجم عنه حتما غياب النقد. يقول د. محمد غنيمي هلال: " ومما يؤسف له أن هذه الحقيقة – على وضوحها – لا زالت مثار جدال لدى بعض الأدعياء في هذا المجال، ممن يريدون أن يرجعوا بالنقد الأدبي إلى الوراء قرونا ضاربة في القدم، سابقة على عهد أفلاطون وأرسطو، حين لم يكن للنقد المنهجي وجود".(42) وما دام د. محمد غنيمي هلال يحدد نشأة النقد على هذا المنوال، فبديهي أن يعارض وجود نقد في العصر الجاهلي والإسلامي، وحتى في العصر الأموي نظرا لغياب فلسفة تؤطر هذا النقد وتمنهجه.

أما ما كان في العصر الجاهلي والإسلامي من أحكام نقدية لبعض الشعراء، وشعرهم فهي لا تسمو إلى مرتبة النقد لأنها غير معللة، وغير معتمدة على أساس نظري أو فلسفي سابق.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الهـــوامش

(1) رشيد العبيدي، الأدب ومذاهب النقد فيه، ص 98 ط الأولى، 1955.

(2) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص 6، ط دار الحكمة – بيروت، لبنان.

(3) المصدر نفسه ص 25.

(4) المصدر نفسه، ص 11.

(5) نفسه، ص 10.

(6 نفسه، ص 11.

(7) ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ج 1، تحقيق أحمد محمد شاكرص84الطبعة3

(8) المصدر نفسه، ص17.

(9) المصدر نفسه، ص 84.

(10) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد، ص 16.

(11) المصدر نفسه، ص 24.

(12) نفسه، ص 11.

(13) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني، ج 9، ص 303 تحقيق سمير جابر، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(14) المصدر نفسه، ج11 ص 12-13.

(15) المرزباني الموشح، ص 46-47

(16) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 13-14-15.

(17) المصدر نفسه، ص 15.

(18) المرزباني، الموشح ص 83.

(19) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 2

(20) المصدرنفسه، ص 34.

(21) نفسه ص 34.

(22) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ص 5 طبعة دار نهضة مصر.

(23) المصدر نفسه، ص 5.

(24) نفسه ص 14.

(25) نفسه ص 14. عن ج. لانسون، نهج البحث في تاريخ الأدب ص 41.